

الله في رد الروح أجابت النفس الروح...^(١) وسبب كشعاع الشمس أحسن تعبير عن التجاذب بينهما على فصال، فضلاً عن حالة الاتصال!

فكما ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ بتمامها، كذلك يتوفى ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ لأولاهها ﴿فِيْمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ وحتى يتم الموت ﴿وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ رجوعاً إلى الحياة، فقد يتحقق الموت في وصال للنفسين كحال اليقظة، أم في فصال لهما كحال الموت، يتوفى الأولى أولاً بالإنامة والثانية ثانياً بإمسك الأولى حتى تنجذب الثانية إليها.

إذاً ف«النوم أخ الموت» ومثل له يمثله كبراعة إستهلال، فإنه توفى كما هو، مهما افترقا بتوفي الروح كله أو بعضه ف﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ

(١) تفسير العياشي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما من عبد... وهو قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...﴾ فمهما رأت في ملكوت السماء فهو مما له تأويل وما رآته بين السماء والأرض فهو مما يخيله الشيطان وليس له تأويل (البرهان ٤: ٧٧). وفي نور الثقلين ٤: ٤٨٩ ح ٦٤ عن كمال الدين وإتمام النعمة بإسناده إلى داود بن القاسم الجعفري عن محمد بن علي الثاني عليه السلام قال: أقبل أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم ومعه الحسن بن علي عليه السلام وسلمان الفارسي وأمير المؤمنين متك على يد سلمان فدخل المسجد الحرام فجلس إذ أقبل رجل حسن الهيئة واللباس فسلم على أمير المؤمنين فرد عليه السلام فجلس ثم قال: يا أمير المؤمنين أسألك عن ثلاث مسائل إن أخبرني بهن علمت أن القوم ركبوا من أمرك ما أفضي عليهم أنهم ليسوا بمؤمنين في دنياهم ولا في آخرتهم وإن تكن الأخرى علمت أنك وهم شرع سواء فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: سلني عما بدا لك قال: أخبرني عن الرجل إذا نام أين تذهب روحه؟ وعن الرجل كيف يذكر وينسى؟ وعن الولد كيف يشبه الأعمام والأخوال؟ فالتفت أمير المؤمنين عليه السلام إلى أبي محمد الحسن بن علي عليه السلام فقال: يا أبا محمد أجبه فقال عليه السلام: أما ما سألت عنه من أمر الإنسان إذا نام أين تذهب روحه فإن روحه معلقة بالريح والريح معلقة بالهواء إلى وقت ما يتحرك صاحبها لليقظة فإن أذن الله تعالى برد تلك الروح على صاحبها جذبت تلك الروح الريح وجذبت تلك الريح الهواء فرجعت الروح فأسكنت في بدن صاحبها وإن لم يأذن الله تعالى برد تلك الروح على صاحبها جذب الهواء الريح وجذبت الريح الروح فلم ترد إلى صاحبها إلى وقت ما يبعث...

وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى... ﴿١﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فحين نفكر في النوم والموت نجد بينهما تقارناً بفاصلٍ يخص الموت، فالنوم - إذاً - آية حسية مكرورة طول الحياة تدل على إمكانية الحياة مع الموت وبعده، معه حيث النائم ميت في نفسه حي في روحه، حياة برزخية أولى، فلتكن في الموت حياة برزخية ثانية بعده وكما النائم يبعث باستيقاظ، كذلك الميت يبعث للحياة الأخرى بنفخ الصور.

وإرسال النفس بعد توفّيها في المنام قضاءً لأجلها، آية إرسالها بعد موتها قضاءً لأجرها.

واليقظة بعد النوم آية أن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

وآية للرحمة المتواصلة الإلهية تقطع عن الإنسان معاذيره كيلا يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ...﴾ ﴿٢﴾.

وكما أن راحة النوم عن حركات التعب ونهضات النصب آية أخرى تُخجل الإنسان أمام ربه إذ يذكّرها، فليراقب أعماله بعده، وكما ترى في منامك رؤىءات صادقة لمكان تجرد أكثر مما في اليقظة، وهناك تنفتح لك شعبة من الوحي فترى ما لا تراه في اليقظة، كذلك - وبأحرى - بعد الموت حيث تتجرد أكثر من النوم، داخلاً في عالم تمامه الصدق، فترى ما لم تكن تراه في حياتك الدنيا يقظةً ونوماً، حيث تُكشف عنك غطاؤك كلها: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ...﴾ ﴿٣﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

(٣) سورة ق، الآية: ٢٢.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ :

اتخذوا من دونه آلهة ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ يشفعون لهم عند الله إذ يقولون: «هؤلاء شفعاؤنا عند الله»؟ «قل أ» تتخذونهم شفعا ولو ﴿كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ لأنفسهم فضلا عما سواهم ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ فكيف - إذا - يملكون؟

ثم وليس كل من يملك شيئا ويعقل هو يملك الشفاعة عند الله، فإن ﴿لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ في شرعة وتكوين، و﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١).

فهو الذي يملك الشفاعة من يملكها على شروطها التي هو قررها لا سواه، فكيف ترجون الشفاعة ممن ليس يملك شيئا ولا يعقلون، وحتى إذا ملكوا وعقلوا و﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢) ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٣)!

فإنما الشفاعة في ملك الله وعباده لمن يملك السماوات والأرض ثم إليه يرجعون، وليس إلا الله وحده لا سواه، ف﴿لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ من أي كان، لأنه المبدأ المبدع وإليه المعاد، فكيف يحق لأحد أن يشفع في ملكه وعنده إلا بإذنه ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٤)؟.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٥) :

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

كلُّ من الاشتمزاز والاستبشار غاية في بابه، : امتلاء القلب غمّاً تظهر آثاره في الوجه مغبراً، وامتلاءه سروراً تظهر آثاره في الوجه متهللاً!

وهب هم يشركون بالله ما لم يأذن به الله، فلماذا يشتمزون من ذكر الله وحده ويستبشرون من الذين من دونه، تلك إذاً قسمة ضيزى، اشتمزازاً من الإله الأصيل الخالق، واعتزازاً بالشريك المختلق، ذلك بأنهم لا يؤمنون بالآخرة، فلهم ما يشتهون فيما يعبدون، وفي الحق ما هم بمشركين كما يدعون، بل هم موحدون لعبادة شركائهم، رافضون لعبادة ربهم، فهم - إذاً - أنحس من الملحدين الناكرين لله، العابدين لغير الله.

لا تقل إنهم مشتمزون - فقط - من توحيد الله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ ومستأنسون إذا ذكر مع شركائه، فإنهم ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ فهم يرفضون ذكر الله وحده ومع شركائهم، وإذا ذكروه معهم فإنما الهدف الأصيل شركاؤهم.

وهكذا نرى جماعة من الموحدين، أنهم لا يستأنسون بذكر الله استيناسهم بذكرى رسله وأوليائه، كما لا يأنسون بكتاب الله أنسهم بخليط الأحاديث من العُث والسمين والخائن والأمين، وهذا شرك خفي في المؤمنين بالله قد يصبح ركاماً فيجلو: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(١)!

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(٢):

الحاكمية بين المختلفين تتطلب حيلة علمية بسائر شروطها المتعاضلة المتفاضلة، ولذلك لا يحكم بين عباد الله أصالة إلا الله، والرسول رسالة

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

والأئمة ولأية، والعلماء الربانيون - الأقرب منهم فالأقرب إلى ساحة العصمة القدسية - خلافة عن أئمة الهدى ومصابيح الدجى .

﴿فَاطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي خلقهما هو أعلم بهما ومن فيهما كوناً وكياناً وفعلاً وافتعلاً، وهو ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الحاكم الوحيد القهار بين عبادِه فيما كانوا فيه يختلفون، حكماً في الدنيا بشرعته المبينة للحق، وحكماً في الآخرة ولا رسالة هناك ولا كتاب، اللهم إلا كتاب الشريعة والأعمال.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾ :

﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هنا المشركون والناكرون لحياة الحساب فالثواب والعذاب حيث ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ...﴾ كل ظلم و﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١) ﴿أَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ...﴾ (٢)

فهم الذين لم يستجيبوا لربهم ف﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَفِيهَا الْمُهَادُّ﴾ (٣).

وهم الذين كفروا ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا نُقِلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٤٤، ٤٥.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٨.

يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾^(١)
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ
 افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾^(٢) وملء الأرض ذهباً هي
 كل ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ فهذا مثل لعظيم الفداء يوم القيامة الكبرى،
 و﴿مِلءُ الْأَرْضِ﴾ أيضاً في آيتها تعني المثلال ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي
 الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ...﴾^(٣) فلا تنافي بين مثلث الآيات: ﴿مَا فِي الْأَرْضِ...
 وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ و﴿مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ حيث الكل أمثال عن كثرة الفداء.

ثم هنا استحالة في قبول الفداء من بعدين، فـ«لو» تحيل أن يكون لهم
 ما في الأرض، ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾^(٤) تحيل قبول
 أي فداء منهم مهما كان أطول الأضلاع في مثلثه، هول ملفوف في ثنيا
 التعبير الرهيب لا حَوْلَ عنه بأية فداء وإن في صورها المستحيلة وحتى ﴿يُودُّ
 الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدَى مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيٍّ بَيْنَهُ﴾^(٥) وَصَحْبَتَهُ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّدُ
 ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾^(٥).

ومع رد الفداء - لو كان - وبعده ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا
 يَحْتَسِبُونَ﴾ من حق المبدأ والمعاد ووحية الرابط بين المبدأ والمعاد، فلم
 يكونوا يحتسبون ذلك المستقبل العتيد الشديد، والاحتساب حكم لأحد
 النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباليه، وهو خلاف الحساب فإنه افتعال من
 الحساب، وتكلف كاذب يناقض الحساب، وقد كانوا يحتسبون أن الحياة
 هي الدنيا، فلم يكونوا يحتسبون أن بعدها أخرى هي أخرى قضية الحساب.

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩١.

(٣) سورة يونس، الآية: ٥٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩١.

(٥) سورة المعارج، الآيات: ١١-١٤.

ثُمَّ وَمِنْ ثَمَّ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ بعد ما كانوا عنها غافلين عمين: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(١).

يوم الدنيا كانت سيئاتهم في احتسابهم حسنات، أم ما كانت سيئات إذ ﴿وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾^(٢) ثم في يوم الحساب يُكشف الغطاء عما عملوا ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ إذ كانوا يستهزئون بالعذاب الحساب، فنزل بهم ما كانوا يحتسبون! مربع من ركام العذاب دون تفلت عنه ولا تفلت.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾

هذه طبيعة الإنسان وسجيته، نسيان الله وذكر من سواه، فإذا مسّه ضرر ولما يحلّ به - حيث المس ذريعة الحلول - هناك ﴿دَعَانَا﴾ أن تكشف الضر عنه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا﴾: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾^(٣) و﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ!﴾.

فرغم أن ﴿نِعْمَةً مِنَّا﴾ هي مخولة غير مملّكة، فهي عطية مؤقتة فتنة ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ وهي «منا» لا منه، لا ذاتاً ولا استحقاقاً، بالرغم من كل ذلك ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حاصراً هذه العطية الربانية أنها آتية «على علم» مني وخبرة واستحقاق ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أكثر المُنعَمين لا يعلمون أن نعم الله فتنة وكما أن نقمه فتنة ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٨.

إِذَا مَا أُنْزِلَتْهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا أُنْزِلَتْهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا... ﴿١﴾.

ومن ثم قليل منهم يعلمون أنها فتنة، أترى أنهم المؤمنون حقاً فلا يغترون بنعمة، ولا ييأسون بنقمة، فهما لهم أمام الله على حدّ سواء، فهم راضون بمرضاة الله؟ وهناك من يعلم أنها فتنة ولكنه يفتن بها! ومنهم قلة قليلة يعلمون ولا يفتنون، ثم و«لا يعلمون» في الأكثر ليس إلا جهل التجاهل والغفلة، جهلاً عامداً دون قصور، حيث الجاهل القاصر معذور.

وليسوا هم بدعاً من قائلتي هذه القولة ف ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من أضرابهم وهم الأكثرية الساحقة في التاريخ ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ على هذه القولة الجوفاء الخواء ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ إصابة يوم الدنيا وأخرى يوم الدين ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ الحاضرين وإلى يوم الدين ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ على سواء ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ الله.

نجد هذه الآية وأضرابها تكشف عن الفطر والعقول رُكام الأهواء الهاوية والشهوات الخاوية، تعريةً من العوامل المصطنعة، وتجريداً للإنسان في ضلاله عن كل حجة، ضارباً إلى أعماق التاريخ في الغابرين، ورابطاً بينهم وبين الحاضرين والذين يستقبلونهم إلى يوم الدين، حيث الكفر ملة واحدة، وفي علة واحدة، فإلى جهنم وبئس المصير.

وإنها تلمس قلوبهم بعرض مصارع الغابرين، من هم أشد منهم قوة وأكثر أثاراً في الأرض وعماراً ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

ألم يعلموا بعد أن نعم الله بلأيا وامتحانات قد تبوء إلى امتحانات، فهي من الله على جهلهم لا منهم ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ منهم؟ فإن لم يعلموا:

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) :

وهذا أمر ملموس أنه هو الذي يبسط الرزق وهو الذي يقدر، فكم من كاد في طلب الرزق الواسع، وعالم كيف يكسبه وقد قُدر عليه رزقه، وكم من متبطل جاهل يأتيه رزقه واسعاً رغداً من حيث لا يحتسب.

وليس هذا التقدير استجاشة للبطالة والعطالة، وتجميداً للطاقات البشرية، وإنما أمرٌ بين أمرين، فلا أن بسط الرزق وقدره رهيان - فقط - لسعي الإنسان أو هموله، ولا أن الله يبسط الرزق ويقدر كفوضى جزاف تعمية للمساعي وهو القائل: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (١).

إنما عليك أن تسعى قدر الحاجة والاستطاعة، دون تحميم على ربك أنه رازقك قدر سعيك، أو يقتر عليك إن لم تسع قدر حاجتك وطاقتك، وإنما عليك السعي وعلى الله التكalan في متوجات السعي.

سعة الرزق هي حصيلة معدات ليست كلها بيدك، فقد يعدها لك ربك إن رآه صالحاً لك أو في كل النظام، أم لا يعدها لخلوه عن صالح هنا أو هناك، ثم يسع الرزق لمن سعى دونك حيث يعدُّ له معداته الخارجة عن سعيه، إذاً فهو الذي يبسط وهو الذي يقدر، رغم واقع المساعي بمختلف درجاتها، إذاً فعليك الحركة قدر المستطاع وعلى الله البركة كما يشاء، زائدة على سعيك أم ناقصة عنه، فإن لم تسع اتكالا على رازقك فما لك إلا ما لغير الساعين من جوع أم بُلغة الحياة أماذا؟

وفي تخلف المسببات عن أسبابها المعدة لها دليل صارم لا مرد له أن

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

في الغيب مسبباً للأسباب ليس لينتظم في خيرتنا تحت الأسباب، إلهاً واحداً يسبب الأسباب أم يبتها عن كونها أسباباً، وهو الذي ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾^(١) رغم ظواهر الأسباب، تنظيماً للكون كأصلح ما يكون، وتدليلاً أن هنا مكوناً واحداً قديراً عليمًا فوق الأسباب، خفياً وراء الأسباب.



(١) سورة الرعد، الآية: ٢٦.